# الفصل الثالث

# 3

## الثقافة .. وبداية الشعر العربي

### طبيعة تكوين الشعر الجاهلي:

تهيأ الشعر للعرب أحياناً شيئاً غامضاً مبهماً، وأحياناً شيئاً مسلياً ممتعاً.. وفي غموضه ألحقوه بالأساطير. ونسبوه للكهان والرهبان وما يستتبع هذا التصور عادة من أمور غيبية وخيالية: من ضمنها الجن والملائكة والخوارق وغيرها مما اتسعت له المخيلة العربية من حق وباطل..

ويرتبط بالشعر أيضاً تأثره بالموسيقا واللحن والطرب والسجع وتقفية الكلام، وبداعة التصوير، وحسن الرصف، وإيقاع الكلمات، وجودة اختيارها واتساع اللغة، واتساقها.. وما يتفرع عن ذلك من التقابل، أو التضاد، أو الترادف، أو الهمس، أو الصخب أو غير ذلك من ضروب الفن.

يبدو إذن أن مسألة الشكل المتعلق بالمتعة، والمضمون المتعلق بالغموض شيآن ارتبطا بالشعر من حيث وجوده قديماً وحديثاً ارتباطاً أبدياً..

وإذا أردنا أن نوجد لهذا الشعر أصلاً نرجعه إليه وتاريخاً نبتدئه به ومنبعاً نستقيه منه.. فلأن ذلك سوف يقودنا بلا ريب إلى نتيجة تتعلق بالفكر والثقافة في عمومهما وخصوصهما أو لنقل إن ذلك قد يتعلق بمستوى معين فيهما.

وهذا الإرجاع ليس قسرياً فرضياً من قبل البحث، بل هو نتاج طبعي لطبيعة الشعر ذاته، كونه أي الشعر يمثل في كل عصوره وصوره وأوزانه ثقافة "ما" تمثل وجداناً فردياً أو جماعياً لشخص أو لجماعة أو لأمة.

والشاعر بدءاً إنسان يعبر عن خلجات نفسه كيفما اتفق، ولكن عندما يسمعه الآخرون

العقلاء ويلتذون بسماع ما يقول، لم يعد بوسع هذا الشاعر أن يقول شعراً "كيفما اتفق "، وإلا أصبح شعره شيئاً من الهذر والهذيان..

ومن هنا فإن الشاعر التزم مبكراً بالمسؤولية الأدبية تجاه جمهوره وتجاه فنه ما دام هناك من يسمعه ومن يتوجب على الشاعر أن يقصد التأثير فيهم.

ومن ثم فلابد أن يحترم عقول الآخرين، وأن يقول كلاماً يحدث أثراً "ما" في نفوسهم إما من حيث تعبيره النفسي عن خلجات النفس الإنسانية وآلامها أو التعبير عنها في حال نشوتها وفرحها أو في حال هزلها وميوعتها.

أو يعبر عن عواطف المرء وأشجانه وحبه وتصويره للعاطفة مع الجنس الآخر أو يتناول بعين فاحصة الحياة ويصوغ تجاربه فيها ويجسد مثل المروءة والأخلاق والشهامة في عبارات لؤلؤية صافية تكون نبراساً للمهتدين وشريعة للقوم الذين لم يكن لهم علم أصح من الشعر.

وهذا الالتزام: هو التزام ذاتي - في نظر الباحث - تفرضه طبيعة الفن ذاته دون أن يكون للتأثير الخارجي المباشر دور كبير فيها، فالقيمة الشعرية تكتسب قيمتها من الشعرية نفسها وليس بالضرورة عن طريق القيم الأخلاقية أو المثالية.. وهذا ما نراه جلياً في الشعر القديم الذي يحفل باتجاهات متغايرة من حيث النظرة الأخلاقية..

فبينما نجد عنترة العبسي يقول:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي  حتى يواري جارتي مأواها[1]

نجد في المقابل امرأ القيس بن حجر الكندي يقول:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع  فألهيتها عن ذي تمائم محول[2]

فبينما كان الموقف الشعري في البيت الأول نبيلاً يعبر عن أخلاق الفرسان الشجعان الذين يتسمون بالحياء وحفظ عرض الجار وصون محارمه حتى في غيابه.. وهي قيمة أخلاقية مثالية تمثل تياراً اجتماعياً معيناً..

(1) عنترة العبسي، ديوانه، ص 67، دار صادر، د.ت.
(2) امرؤ القيس بن حجر الكندي، ديوانه، ص 120، مصدر سابق.

نجد في البيت الثاني امرأ القيس بن حجر شاعراً خليعاً متهتكاً لا يراعي إلا قيمه الذاتية المنهمكة في اللذات والتي تتمتع بالإكثار منها وتنويعها على كل الحالات ولو كانت خليلته امرأة حاملاً أو مرضعاً وهي قيمة ذاتية أيضاً تمثل تياراً آخر في المجتمع ربما يكون تيار أبناء الأغنياء والملوك والسادة.. أو بعضهم أو غيرهم ممن اختار هذا النهج.

وهذا الرصد يمكن أن نلحظه في أكثر من مفارقة شعرية تعطينا تنوعاً وغنى للثقافة الاجتماعية التي صورها لنا الشعر الجاهلي ونقلت إلينا تضاربات الثقافة الجاهلية وتنوعها.

ولذا كان على الشعراء أن يكونوا من مثقفي الأمة بالضرورة وكلمة "مثقفين" تعني بعد أن وصلنا في الفصل الأول من هذا البحث إلى تحديد معنى الثقافة، يقصد بها هنا الوسطية الثقافية.. وكون الشاعر من الوسط الثقافي لا يعني بالضرورة أنه ينفرد بعلو ثقافته وسموها عن الآخرين، أو أنه القمة التي لم يصل إليها غير الشعراء..

بل قد يكون هناك من هم أوسع منه إدراكاً وعلماً وفهماً في المجتمع كالقادة والحكام والكهان وشيوخ القبائل وفرسانها وشرفائها وكرمائها.

ولكن الشاعر أضاف إلى هذا القدر المشترك من الثقافة رهافة إحساسه التي جعلته يتأثر بمعارفه ويخلطها بإحساسه ويطاوعه الكلام، فيصوغ من كل ذلك قصيدة تذهب في أرجاء الأرض يتلقفها الرواة ويحفظونها من المرة الأولى لما بهم من عطش إلى المعرفة وشوق إلى تفهم هذه الأحاسيس واستلهامها.

وما هو إلا القول يسري فتغتدي  له غـرر في أوجـه ومواسـم[1]

وهذا التمثيل الفريد للثقافة العربية عن طريق الشعر ربما يفسر لنا أسباب بقائه زمناً طويلاً الفن المفضل عند العرب بما أنه حفظ مكارمهم ومآثرهم وحياتهم بشكل عام.. فلا عجب إذن أن حفظه العرب عن ظهر قلب وبقي محفوظاً عندهم زمناً طويلاً حتى تمّ تدوينه فيما بعد عن طريق الرواة، فالشعر الجاهلي كان نتاجاً لثقافة أمة.. ووسيلة لغوية أخرى للتواصل.. ورغم هذا الدور الحيوي الكبير للشعر الجاهلي في ثقافة الأمة العربية فإن البحث

(1) لم أعرف قائله، البيت عند الجبوري، الشعر الجاهلي، ص 37.

في أولياته وكيفيات بداياته لم يأت بطائل "وجماع القول أن أوليات الشعر العربي ضاعت واندثرت ولم يعد لها أي ذكر في كتب القدماء يشرحها ويوضحها ويتتبعها ويرصدها، والحق أن هذه المشكلة ليست مشكلة الشعر العربي وحده، بل هي مشكلة الأشعار العالمية كلها، فالإلياذة والأوديسا تلك الصورة الرائعة من ملاحم البطولة اليونانية، لم تكونا أول نتاج أدبي لليونان بلغ حد الكمال فجأة.. "[1].

ومع أن بعض المصادر القديمة قد احتفظت لنا بنماذج لبعض النصوص والأبيات المقطعة إلا أن د. حسين عطوان لاحظ أن ما حفظه القدماء من النصوص التي زعموا أنها أوليات الشعر ليست قصائد بل أبيات ومقطعات، لا تمدنا بشاهد، ولا تزودنا بدليل، لأنها لا تحمل شيئاً ما يجوز لنا القول بأنها التجارب الأولى التي تصوّر القصائد ومقدماتها تصويراً دقيقاً..[2]

هذا الفقدان الكبير للمحاولات الأولى ليس بذي أهمية عند بعض الباحثين، ذلك أن "هذا الفن الكلامي لم يكن عمل فرد أو بضعة أفراد، بل كان عمل أجيال متعاقبة وجد بعض أبنائها في أنفسهم المقدرة على صوغ أفكارهم، وإحساساتهم، في ألحان وأوزان تهتز لها النفس"[3].

إذن.. فلن نرهق أنفسنا من أجل البحث عن أشياء تقل قيمتها العلمية، ولا يمكن للباحث مهما اجتهد أن يصل فيها إلى آراء قاطعة وأحكام جازمة غير قابلة للنقض أو للشك. فلن نبحث مثلاً عن كيف بدأ قول الشعر تحديداً؟ وما هي أول كلمة قيلت؟ ومن هو أول شاعر؟

رغم وجود روايات تاريخية تحاول أن تقدم ظروفاً صوتية وموسيقية لقول الشعر وتجعل الصدفة وحدها هي التي قادت الإنسان إلى هذا الاكتشاف الإنساني المذهل عن طريق أن الإنسان اكتشف فجأة جمال صوته الذي ينادي بمقاطع مقفاة يصدح بها صوت شجي جميل فتصغي له الإبل وتلتفت إليه وتعدل فجأة عن شرودها وتترك مراتعها لتنتظم في قافلة واحدة خلف حاديها ذي الصوت الجميل.

(1) عطوان، د. حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ص70.
(2) عطوان، د. حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص72.
(3) الجبوري، د. يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص82، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت، 1986.

وظاهرة المصادفة التي تحاول بعض الروايات التاريخية أن تجعلها أساساً منطقياً للإبداع الشعري، ربما يكون مقبولاً في الإطار الموسيقي للشعر، ولكن ذلك سيوقعنا في محظور أن الموسيقا والوزن هما الشعر إن صح هذا التعبير، في حين أن الشعر العربي القديم يحمل في طياته حياة كاملة، وبحوره وخاصة الطويلة منها التي نسجت عليها أغلب القصائد، ليست بذات ترجيع موسيقي قصير منتظم من ذلك النوع الذي تألف الأذن سماعه سريعاً من مثل موسيقا الألحان وشعرها.

من أجل ذلك فإننا نترك هذه التساؤلات، ربما لأنها سترجعنا إلى تساؤلات أوسع من مثل: من هو العربي؟ ومن أول من أطلق عليه هذا الاسم؟

ومن مثل: ما هو الكلام؟ وما هي أول كلمة قيلت؟.. وهلم جرا.

فالتحديدات التاريخية صعبة جداً، خاصة مع انعدام التدوين ولكن الممكن والمفيد هنا أن نعرف مثلاً: التصور الشعري.. والتهيؤ لقول الشعر وسماعه، وكيف أن البيئة العربية لم تكن قاحلة في الفكر الإنساني والوعي الاجتماعي بحيث يصبح غريباً عنها أن تهتدي إلى فن راق وسام كمثل الشعر.

وقد عرضنا في الفصل السابق نبذاً عن معارف العرب وعلومها باختصار، ولكنه اختصار دال يعطي إشارات واضحة إلى أن الشعب العربي في امتداد الأرض كانت له حضارته وأنه عندما اختار أن يسكن بيت الشعر بدل تشييد الدور وعمران المدن وتسوية الطرق فإن هذا الاختيار كان متعمداً ومقصوداً فرضته طبيعة الأرض التي عاش عليها العرب وقلة الماء الذي هو أساس العمارة والبنيان والزراعة في كل مدينة على وجه الأرض.

وهذه الحياة السهلة التي عاشها العربي وتورط فيها في صراعات مع بني جنسه فرضتها الظروف الصعبة: كانت غنية بتجاربها وثقافتها ووعيها بل وبمثلها ومبادئها وأخلاقها السامية.. بشكل ربما لم تصل إليه الحضارات التي بقيت تعيش حياة رتيبة منتظمة لقرون عدة.

وهذه الحضارة العربية جعلت العربي غير تقليدي في تفكيره، وغير محدد في نظرته إلى الأشياء، ومجاوزاً للماديات الملموسة في إدراكه للمعاني.

ومن هنا فإن العربي لم يجد صعوبة في الانتقال بفهمه من الحقيقة إلى الخيال ومن ثم لم

يجد الشعراء صعوبة في استخدامهم للمجاز في شعرهم ؛ لأنه شيء مُدْرك عند العربي.. رغم أن العربي عاش واضحاً صريحاً حازماً في أحكامه، والنظرة السريعة البعيدة إلى حياته تقول لنا أنه لا يقبل إلا أن يكون كل شيء واضحاً له وضوح الشمس في رابعة نهار الجزيرة العربية ولكنه مع ذلك ينسجم مع قول لبيد:

ولقد حَمَيْتُ الحي تحملُ شكتي ... فُرْطٌ وشاحي إذْ غَدَوتُ لجَامُها
فعلوت مرتقباً على ذي هبوة ... حَرج إلى أعلامهن قتامُهَا
حتى إذا ألقت يداً في كافرٍ ... وأجنّ عورات الثغُورِ ظَلامُهَا
أسهلتُ وانتصبت كجذع مُنيفةٍ ... جرداء يَحْصَرُ دونها جرّامُهَا
رفعتها طرد النعام ووشلهُ ... حتى إذا سخنت وخف عظامُها
قلقت رحالتها وأسبل نحرُها ... وابتلّ من زبد الحميم حزامها
ترقى وتطعنُ في العنان وتنتحي ... وردَ الحمامة إذا أجدَّ حِمامَّهَا
وكثيرةٍ غُربَاؤها مجهولةٍ ... ترُجَى قوافلها ويخشى ذامُها
غُلْبٍ تشذرُ بالذحول كأنها ... جنُّ البدي رواسياً أقدامُها
أنكرتُ باطلها وبؤت بحقها ... عندي ولم يفخر علي كرامها[1]

هو أيضاً يفهم معاني قول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتُمُنّ الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يَعْلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجّل فينقم
وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا أضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتئتم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغلُّ لأهلها ... قرى بالعراق من قفيزٍ ودرهم[2]

(1) الزوزني، أبو عبد الله الحسين، شرح المعلقات السبع، ص 244، 247، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت
(2) المصدر السابق، ص 148، 149.

فقد حمل هذان النصان عبارات مجازية تخرج عن مسار اللغة المألوف من حيث الدلالة المعجمية البحتة لتنقل المتلقي إلى آفاق أبعد.

من ذلك قول لبيد "حتى إذا ألقت يداً في كافر".

يقول الزوزني شارحاً البيت: "يقول حتى إذا ألقت الشمس يدها في الليل، أي ابتدأت في الغروب، وعبر عن هذا المعنى بإلقاء اليد، لأن من ابتدأ الشيء قيل ألقى يده فيه" [1].

فانظر إلى المفارقة بين "ابتدأت الشمس في الغروب"، و"حتى إذا ألقت يداً في كافر". استخدم الشاعر هنا معارفه وثقافته اللغوية من أجل الانزياح باللغة عن مسارها المعجمي المألوف، إلى انطلاقة إبداعية رائعة لا تتعامل مع الموجودات بوجودها الواقعي الحالي فقط باعتبارها جماداً، بل يعاملها باعتبارها كائناً حياً له أيد وأرجل ويجسم الظلام: يجعله شيئاً قابلاً للتعامل مع الأشياء وهذا التصوير الإبداعي التركيبي للتعبير عن شيء بسيط "الغروب" لا تحمله عقول خالية من الفكر والإبداع.. ولا نجده في ثقافة ضحلة جرداء كصحراء أهلها. هذه المعاني التي لم تكن سطحية ولا بسيطة كبساطة الصحراء ما كان لها أن تجد صداها في الوسط الثقافي العربي. لو لم تكن ظروفه الثقافية والاجتماعية والنفسية والذهنية مهيأة ومعدة للتفاعل معها وإدراكها.

والغريب هنا أن الشعر في غاياته لا يستهدف الإدراك فقط إذ إن إدراك الأشياء شيء من صميم العقل.. ولكن الشعر يذهب في معانيه إلى أبعد من ذلك بشرط حصول فهم فكرته في الذهن فهو يذهب إلى إثارة المشاعر والنفوس.. ليس بتغييب العقل كما يزعم بعض النقاد ولكن بمساعدة منه. ولكننا هنا نستدرك لنقول: ربما تكون كل الظروف الداخلية والخارجية مهيأة لشيء ما ؛ وفي الغالب لهذا الشيء هو حدوثه ولكن ليس بالقطع والضرورة أن يحدث.

وكذلك الشعر الذي قد توجد دواعيه وبواعثه بل وضروراته أيضاً. ولكن لا يوجد الشعر ولا نسمع بالشاعر !. وللتدليل على ذلك فإن بإمكاننا أن نأخذ عينات من أي مدينة أو قرية أو أي بيئة اجتماعية في أي عصر أو زمن وليكن عصرنا الحديث مثلاً.. فنجدها خالية من الشعراء، وما أكثر ذلك في عصرنا.

(1) المصدر السابق، ص 245.

إذن فهناك من الظروف ما هو خارجي: وهو يتعلق بالبيئة والثقافة والمحيط بشكل عام. وما هو داخلي بحت: يتعلق بالإبداعية الشعرية الذاتية للشاعر التي مجال البحث فيها طويل وشائك.

ولكن وجود هذين العاملين الداخلي والخارجي لا يعني تنافيهما أو تقاطعهما. بل هناك ارتباط وثيق بين العاملين، وتفسير ذلك أن اجتماع عوامل البيئة الملخصة في هذا البحث بالثقافة.. تؤثر تأثيراً إيجابياً في توجه الذات المبدعة التي تملك مقومات إبداعية ذاتية نحو الإبداع الأدبي ويعنينا هنا منه الشعر.

وغنى هذه العوامل وتنوعها يضيف للإبداع الشعري عمقاً فكرياً ومادة خصبة للطرح الأدبي، وصيغاً وأشكالاً وأجناساً من فنون القول لا تتاح في غير هذه البيئة.

والعكس قد يكون له أثر سلبـي في كل ذلك بنسبة قد تزيد أو تنقص.

لاحظنا بعد هذا العرض الارتباط بين الثقافة والذات في تكوين الإبداع. ولاحظنا أيضاً انفصاماً بينهما بحكم وجود الثقافة وعدم وجود الشاعر. كيف يمكننا إزاء هذا الزعم أنا نطرح قضيتنا؟

إننا نبحث عن الذات الشاعرة ولا تهمنا غيرها من الذوات، ونبحث عن الصلة بين هذه الذات الشاعرة وبين الثقافة الخارجية ولذا وجب أن نخلص الموضوع من أي اعتراضات قد تدخل على نطاق بحثه وتسبب لنا إرباكاً في استنتاجاتنا التي يجب أن تكون مناطة فقط بالموضوع.

ولذلك فإذا اعتبرنا الأمة الشاعرة: هي أمة مثقفة مرهفة الحس، ولها شعور قوي بالجمال المعنوي، والحسي مما يدل على رقي في فكرها، وذوقها، وربما في أسلوب حياتها وهي بالتالي أمة متحضرة..

فيجب علينا بناءً على كل ذلك أن نقر أن الأمة العربية كانت أمة حية متحضرة من قديم الزمان ومن عهود غابرة، يدل على ذلك فشل المحاولات التأريخية لبداية الشعر العربي، وتحديد مدة دقيقة لبداياته، حتى مع وجود الكتابة وقرب العهد..

وينسب في هذا الإطار إلى الأصمعي قوله: "إن أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة رجل من بني كنانة، والأضبط بن قريع، قال: وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمائة سنة، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير"[1].

وروى السهيلي في الروض الأنف أبياتاً زعم أنها وجدت في بئر باليمامة، وهي بئر طسم وجديس في قرية يقال لها معين، وكانت مكتوبة على ثلاثة أحجار - كتبها قوم من بقايا عادٍ غزاهم تبع كتب على بعضها:

كـل عيـش تعلـة ... ليس للدهـر خلـة
يوم بؤس ونعمى ... واجتمـاع وقلـة
حبنا العيش والتكاثر جهل وضلة
بينما المـرء ناعـم ... فـي قصـور مظلـة
في ظـلالٍ ونعمـة ... ساحباً ذيـل حلـة
لا يرى الشمس ملغضارة إذ زال زلة
لم يقلهـا وبدلـت ... عـزة الـمـرء ذلـة
آفة العيش والنعيم كرور الأهلة
وصـل يـوم بليلـة ... واعـتـراض بعـلـة
والمنـايـا جـواثـم ... كالقصـور المدلـة
فالذي تكره النفـو ... س عليهـا مطلـة[2]

وهي أبيات لا نثق كثيراً في قدمها، ويراودنا الشك حول صحة نسبتها.. ولكننا لا نستطيع أن ننفي تماماً صحتها.

وظاهر الأبيات تفجع من نوائب الدهر وعلله التي لا تلبث أن تفاجأ المرء المنعم الغافل

(1) الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، ص 29، الدار المصرية للكتاب. وانظر: المزهر، مصدر سابق، جـ 2، ص 478.
(2) السهيلي، الروض الأنف، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، جـ 1، ص 68، دار المعرفة، بيروت، 1978.

الذي لم يحسب لتقلب الدهر حساباً فبينما هو في تلك الحال إذا بالمنايا تترصده من حيث يدري ولا يدري، وهي أبيات تنم عن تجربة طويلة مريرة مع الحياة وإذا صحت قصة طسم وجديس، فربما كان أحد الشعراء قد قالها بمناسبة ما حدث لهم وليس شرطاً أن يكون هذا الشاعر متقدماً زمناً. أما الجاحظ فقد تحفظ غاية التحفظ لمسألة قدم الشعر العربي، فقال:"وأما الشعر، فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعر.. وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام" [1].

وفي رأي الجاحظ هذا نظر، فربما عنى الجاحظ الشعر المستوي الراقي المحفوظ أيضاً.. وربما المدون ومما يدلنا على ذلك استدلاله بامرئ القيس، ومهلل بن ربيعة وهما ممن رويت لهما أشعار كثيرة، وقصائد جمة.. وإلا فإن الجاحظ نفسه ينقل عن عمر بن شبة في البيان والتبيين قوله "وإن للشعر أولاً لا يوقف عليه.."[2].

أما محمد بن إسحاق، فقد روى النديم عنه قوله: "فأما الذي يقارب الحق، وتكاد النفس تقبله، فذكر الثقة أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وأرم وحويل فهؤلاء هم العرب العاربة، وأن إسماعيل عليه السلام لما حصل في الحرم ونشأ وكبر وتزوج في جرهم إلى معاوية بن مضاض الجرهمي، فهم أخوال ولده، فعُلّم كلامهم، ولم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض، ويصنعون للأسماء أشياء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها، فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية، وكثر هذا بعد معد بن عدنان"[3].

إذن فالشعر قد كثر وظهر جيده وفصيحه – ويهمنا هنا أن نركز على هاتين اللفظتين "جيده وفصيحه" – بعد معد بن عدنان جد العدنانية. ومعد بن عدنان هذا: هو الجد الثامن

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، جـ 3، ص 112، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، مصدر سابق، جـ 2، ص 213.

(3) النديم، الفهرست، ص 12، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

عشر للرسول الكريم ﷺ، وهو الذي عناه ﷺ بقوله: (كذب النسابون فيما بعد معد)[1].

وإذا أردنا أن نحسب الفترة الزمنية التي تسبق النبي ﷺ إلى معد بن عدنان، وجعلنا لكل جد من أجداده خمساً وثلاثين سنة كما فعل بعض المؤرخين، فإن بين معد ابن عدنان وبين مولد النبي ﷺ خمسين وسبعمائة سنة أو أكثر تقريباً.

وسلسلة نسبة النبي ﷺ كما رواها ابن هشام في سيرته هي: "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان "[2].

ومعد بن عدنان هذا كان محل نظر بين الباحثين في زمنه ومنشئه، فمنهم من جعله بإزاء موسى بن عمران[3]. ومنهم من جعله في عهد بختنصر أي في أواخر القرن السابع قبل الميلاد وهذا الرأي الأخير هو الذي رجحه نجيب البهبيتي..

ولعل هذا الرأي محل نظر باعتبار أنه لا يطابق الحديث النبوي الشريف الذي يجعل بين معد وبين النبي ﷺ بين خمسين وستمائة سنة إلى سبعمائة سنة[4].

يبدو أن هناك من يجعل من لفظة "معد" نفسها محل نظر في مدلولها وعلميتها وكونها علماً أطلق على شخص بعينه.

ومن ثم يشكك في وجوده التاريخي أصلاً: أي هل هو اسم لعلم أو اسم لشخصية تاريخية غير محددة؟ أو لقوم لا ندري كيف اكتسبوه[5].

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ص 1، 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 3.
(3) انظر: ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، مصدر سابق، جـ 1، ص 11. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 2، ص 20. والطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 3، ص 19.
(4) البهيتي، د. نجيب، المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين، ص 583، دار مصطفى الحلبي، القاهرة، 1989.
(5) الفريجات، د. عادل، الشعراء الجاهليون الأوائل، ص 121، دار المشرق، الطبعة الأولى، بيروت، 1994

وسواء كان "معد" اسماً علماً أم هو لفظ دال على شخصية تاريخية غير محددة، فإن ما نستخلصه من كل ذلك هو الفترة الزمنية المقصودة التي هي مناط البحث والتي حددناها آنفاً، فنستعيض بذلك عن حقيقة معد من حيث هو شخص أم لا.

أما الأصمعي الراوية المعروف، فإن منهجه الروائي التجميعي قاده إلى إقرار حقائق راسخة فقط، وهو الذي شهر عنه أنه لا يقبل الروايات الضعيفة، ويرد المنحول، وهو مصدق بين علماء العربية مشهور بأمانته العلمية الصادقة، وإن حاول بعض الكتاب التشكيك في بعض أسماره وأحاديثه التي روي أنه سامر بها خلفاء بني العباس نقول إن منهجه الصارم قاده إلى إقرار الحقيقة التالية: "لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات التي يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف"[1].

والفترة الزمنية المشار إليها هنا تتراوح ما بين مائة وخمسين ومئتي سنة قبل الإسلام بحسب الأعلام المشار إليهم.

وهي فترة نراها قصيرة جداً ونشك في أنها تغطي بحثاً مستفيضاً عن أولية الشعر العربي.. من عالم كبير كالأصمعي.

ولهذا فإننا نرجح الرواية الأخرى التي تنسب إليه ويقول فيها: "إن أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر: مهلهل، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة: رجل من بني كنانة، والأضبط بن قريع، قال: وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمائة سنة وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير"[2].

وإذا اعتمدنا هذه الرواية باعتبارها أكثر منطقية من سابقتها فإننا نستنتج منها:

- أن القصائد المطولة "من ثلاثين بيتاً فما فوق" قيلت قبل الإسلام بحوالي أربعمائة سنة.
- أن هناك شعراء قدامى كالمهلهل حفظت لهم قصائد طويلة منذ فترة بعيدة.
- أن هذه القصائد الطويلة التي قيلت قبل أربعمائة سنة سبقتها حتماً المقطعات والأبيات

(1) ابن سلام، الطبقات، مصدر سابق، ص 13.
(2) نص سابق من ابن سلام، الطبقات، ص 29. ومن: السيوطي، المزهر، جـ 2 – ص 478.

التي يقولها الرجل بين يدي حاجته، ولابد أن الأمر استغرق زمناً طويلاً حتى أخذت القصيدة تقال بوصفها وحدة كاملة فيها وحدة موضوعية أو عضوية تميزها عن غيرها من الأبيات واكتمل فيها شكل الروى والقافية وأصبح محدداً في ذهن الشعراء وحسهم الفطري.

أما البلاذري، فيروي لنا أن مضر بن نزار كان من أحسن الناس صوتاً فسقط عن بعيره، فانكسرت يده فجعل يقول: "يا يداه، يا يداه، فأنست الإبل لصوته، وهي في المرعى، فلما صلح وركب حدا، فهو أول من حدا "[1].

وروى ياقوت الحموي لرجل من الحاج أبياتاً قالها في بئر حفرها قصي بن كلاب قرب مكة تدعى العجول:

نروي على العجول ثم ننطلق
إن قصيا قد وفى وقد صدق
بالشبع للحاج وري مغتبق[2]

أما ابن إسحاق فقد روى شعراً نسبه إلى عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي زعم أنه قاله لما خرج بقومه من مكة إلى اليمن ومنه هذه الأبيات:

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجة بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

وربما نسبت هذه الأبيات إلى الجن أيضاً [3].

أما المحدثون فنرى منهم من يرفض أن يكون للعرب شعراء قدماء أوغلوا في القدم ولا يجد مبرراً لضياع شعرهم يقول جرجي زيدن: "إن العرب على اختلاف القبائل والبطون قلما

(1) البلاذري، يحيى، أنساب الأشراف، جـ 1، ص 30، 31، الدار المصرية، القاهرة، 1956.
(2) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، جـ 2، ص 210، دار أخبار التراث، القاهرة، د.ت.
(3) ابن هشام، السيرة، مصدر سابق، جـ 1، ص 82.

نبغ فيهم شاعر أو خطيب أو حكيم أو كاهن في عصورهم الجاهلية الثانية إلا بعد دخولهم في القرن الأول قبل الهجرة، ولا يعترض بضياع أخبار من ظهر قبل ذلك التاريخ، فقد حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة، وذكروا بضعة شعراء ظهروا قبل القرن الأول المذكور، فلو نبغ غيرهم من الشعراء أو الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعاً تاماً، وأما تاريخهم في جاهليتهم الأولى في بابل أو اليمن فلم يصلنا منه شيء يشفي الغليل"[1].

ولكن هذا الاعتراض ليس دقيقاً تماماً في رصده فإن جرجي زيدان يعترف بقلة النابغين من الشعراء، والقلة ليست دليلاً على الضحالة أو الانعدام، فقد كان الموهوبون - ولا يزالون - نادرين قليلين في كل زمن وحين وفي كل اتجاه وتخصص.

أما رده لكون أخبارهم ضاعت ببقاء أخبار عاد وثمود وصالح، فإننا نرى أن أخبار عاد وثمود وصالح أيضاً قليلة جداً قياساً بتاريخهم الطويل الحافل الذي بقيت منه إشارات ضئيلة وقصصهم الطويلة التي روى القرآن الكريم جزءاً منها. فهي أيضاً قد ضاعت.

وبقاء جزء من الشيء يبقى دليلاً على قيام أصله، والشيء لا ينبت بدون جذور، وإن فقدناها.. وهكذا فإننا لو اشترطنا على أنفسنا تفنيد أي شيء لم يكن واضحاً وظاهراً وجليلاً، إذاً لرددنا كثيراً من الأشياء، ولأنهينا الافتراض من المنطق أصلاً.

فالتسلسل المنطقي لنمو الأشياء وتطورها يفترض أن يكون لهذا الشعر المكتمل فنياً بدايات بسيطة.. ثم تطور الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى حد الكمال..

ولكن السؤال هنا.. هو متى بلغ الشعر حد الكمال؟ أو حتى متى قارب ذلك؟ وهذا أيضاً لابد أن يكون في مرحلة متقدمة من عمر الجاهلية ؛ فالنصوص المهترئة البدائية لا تصلح لأن تكون مثالاً يحتذى به ونموذجاً يسار على نهجه.. وإلا فكيف لشعر مثل شعر امرئ القيس بن حجر أن يكون كشعر ابن حذام:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام[2]

(1) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ1، ص 37، مرجع سابق.
(2) ديوانه، مصدر سابق، ص 123.

أو كيف لشعر الحكيم المتفلسف زهير بن أبي سلمى أن يكون كلاماً معاداً مملولاً من كثرة ما قال الأولون مثله إن لم يكن كلامهم ككلامه أو أفضل منه:

ما نرانا نقول إلا معاراً  أو معاداً من قولنا مكرورا[1]

وإذا التفتنا قليلاً عن الروايات التاريخية ورجعنا إلى الشعر الجاهلي نفسه، فإننا نجد آثاراً فيه تدلنا على أن هذا الشعر قديم، وأن فحول شعراء الجاهلية الذين نعرفهم، ونروي شعرهم إنما كانوا يحتذون في أشعارهم شعر شعراء من قبلهم ؛ سبقوهم ومهدوا لهم الطريق، وأقاموا لهم المعالم وبينوا لهم الأوزان والقوافي.

ولعل بيت امرئ القيس السابق:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا  نبكي الديار كما بكى ابن حذام

خير دليل على ذلك، ويروى أن ابن حذام هذا قديم جداً حتى أن ابن خالويه ظن ربما اعتماداً على هذا البيت أن أول من قال الشعر ابن حذام[2].

وكذا بيت زهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه:

ما نرانا نقول إلا معاراً  أو معاداً من قولنا مكرورا

وهذا يدلنا على أن هناك كماً محترماً من الشعر قيل قبل زهير بن أبي سلمى المزني، وهذا الشعر ليس شيئاً هيناً أو يسيراً في عدده، فهو قد استغرق فيما يبدو كافة موضوعات الحياة، وشجون النفوس، وعالم الجزيرة العربية كله خيره وشره ضره ونفعه مآسيه ومسراته.. ومختلف نواحيه الاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

حتى إن الشاعر ظن أنه لم يعد بإمكانه أن يقدم جديداً يختلف عن السابق، فهو دائماً، محتذٍ للأوائل، أو معيداً مكرراً لمعانيهم وأشعارهم بصيغ جديدة.

وهذا ما أكد عليه بوضوح عنترة العبسي حين يقول:

(1) ديوانه، مصدر سابق، ص 87.

(2) نقلاً عن: السيوطي، جلال الدين، المزهر، مصدر سابق، جـ2، ص 477.

هـل غـادر الشعـراء من مـتردم  أم هل عرفت الدار بعد توهم[1]

وهذه الملاحظة سجلها أيضاً لبيد بن ربيعة عندما رصد – مستفيداً من وجوده في زمن متأخر قليلاً – هؤلاء الشعراء في نحوهم وفي شعرهم وتتبعهم لآثار من سلفهم، فقال:

والشاعـرون الناطقـون أراهـم  سلكوا طريق مرقشٍ ومهلهل[2]

فهذا الزخم الذي يدخلنا في عالمه شعراء جاهليون لاشك في جاهليتهم يدل على حياة شعرية سابقة مزدهرة ومتنوعة بل أيضاً هي ضخمة حتى إنها لم تجعل لمستزيد عليها مزيداً لفرط ما اتسعت وكثرت..

وهذه الكثرة التي أشار إليها الجاهليون لا يمكن أن تكون وليدة فترة زمنية قصيرة، بل إننا نرجح أنها وليدة زمن طويل وتراكمات تاريخية متعددة.

وبهذين العاملين نستنتج قدم الحضارة العربية، وأنها موغلة في القدم إذا اعتبرنا قدم أشعارها وبعدها التاريخي.

وهذا يقودنا إلى أدلة قاطعة بطرق ميسرة سهلة، بينما لم نستفد من الروايات التاريخية كبير فائدة فهي مبنية على التخمين والتوقع، وتتضارب مع بعضها أحياناً بين قدامى ومحدثين.

بينما كان الشعر واضحاً في دلالاته بطرق مباشرة أو بطرق إيحائية روائية.

ويظهر من التتبع الفني أن الشعر العربي كان فناً متطوراً في جميع مراحله وكل مرحلة من المراحل كانت تحمل بذر التطور معها إلى مرحلة تالية وهي سنة سار عليها الشعر العربي ردحاً من الزمن، حتى استقر حاله على صيغ مرضية راقية تتضح في المعلقات العشر التي ارتضاها العرب صفوة فنية يرجع إليها للاحتذاء أو الاهتداء[3].

وفي العصر الحديث نجد أن بعض النقاد يذهبون إلى أبعد من هذا الحد[4]، ويرون أن

(1) عنترة العبسي، ديوانه، ص 86، دار صادر.
(2) لبيد بن ربيعة، ديوانه، مصدر سابق، ص 219.
(3) البهبيتي، د. نجيب، المعلقات سيرة وتاريخاً، مرجع سابق، ص 43.
(4) انظر: الفريحات، د. عادل، الشعراء الجاهليون الأوائل، مرجع سابق، ص 92.

الشعر الجاهلي الصحيح هو حاصل تطور طويل ومستمر، لا يمكن تحديد أوله. إذ بدأ الشعر منذ بدأ الإنسان يشعر بالفرح والسرور وبالتعبير عن عواطفه بطرق مختلفة.

وقد فقد القديم منه بسبب عدم تدوينه تدويناً جيداً في حينه أو لعدم وجود أدوات كتابة كافية، أو لعدم وجود كتابة عملية سهلة الأدوات وسهلة التنقل بها وحفظها كما في الكتابة الحالية، أو بسبب صعوبة حفظه وبقائه زمناً طويلاً بسبب توالي الأجيال، وعدم اكتسابه في بداية عهده أهمية قصوى كالتي هو عليها الآن، أو بسبب عدم وجود رواة مختصين بجمعه، أو أنه أصبح شيئاً اعتيادياً في حياة الناس لا يرون للسابقين فيه مزية، فسقط شعرهم لشغف الناس برواية المحدث، هذا الفن البديع الذي تتفتق مواهب الشعراء كل يوم عن جديد فيه وخاصة إذا كان القديم منه ما زال في طور الإنشاء ولم يكتسب موسيقاه وبلاغته وإبداعه الذي ظهر في الحديث منه [1].

وهذه الأسباب جميعها قد تكون مبررة لفقد القديم، والمهم هنا أن هذا القديم الابتدائي الأولي لم يصلنا منه شيء يشفي الغليل وهو شيء متوقع في كل محاولة ابتدائية لصنع أي شيء، ولو سألنا شاعراً فحلاً عن أعماله التي ابتدأ بها لربما أنكرها أو تبرأ منها باعتبار أن النضج الفني لديه لم يكن قد اكتمل بعد، وبالتالي فقد تأتي هذه المحاولات دون المستوى، فيتعمد أحياناً تغييبها.

وفي هذا الإطار يرصد د. جواد علي بدء الشعر ببدء الإنسانية نفسها ويربطه بوجودها وبوجود الإنسان أينما حل وحيثما كان ووجد.

"فإنه لـمّا كان الشعر تعبيراً عن عواطف جياشه، وعن حس مرهف، وعن نفس حساسة تريد التعبير عن نفسها بأي أسلوب كان، فإن في استطاعتنا القول إنه لازم البشرية منذ عرفت نفسها وأخذت تعبر عن إحساسها بأي طريقة كانت: بطريقة بدائية أو بطريقة متطورة فبدأ الشعر كما بدأ الإنسان، وتعددت طرقه وبحوره بتطور العقل والمدارك، وبارتفاع مستوى الحياة " [2].

(1) الحديث والقديم في هذا السياق يقع كله في إطار العصر الجاهلي بين المتقدم منه "البداية" والمتأخر أي في عصور الجاهلية التي سبقت الإسلام بقليل.

(2) علي، د. جواد، المفصل، مصدر سابق، جـ 9، ص 421.

فالشعر إذن خاصية إنسانية ذات صبغة بشرية لازمت النفس وكانت متنفسها الطبعي للتعبير عن آلامها وشجونها.

وهذا قول يكتسي أهمية نقدية كونه يأتي من تحليل شعري غير متعال، وغير متسم بالتقليدية، والصرامة المنهجية الزائدة، ويستبعد التاريخ والرواية في منطلقاته.

ولهذا السبب فإن د. جواد علي يرفض القول بأنه لم تكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل بين يدي حاجته..

وإنما قصدت القصائد في عهد مهلهل أو هاشم بن عبد مناف، فهو بحسب د.جواد علي رأي لا يقوم على دليل، وليس له سند تاريخي وإنما هو مجرد رواية رواها رواة الشعر في الإسلام، إذ لا يعقل – بزعمه – أن تكون قريحة الجاهليين الذين عاشوا قبل الإسلام بقرنين أو بقرن ونصف، قريحة محبوسة محصورة حددت بقدر لم تتعدها ولم تتخطها، فإذا هاجت وماجت بالأحاسيس وبالشعور المرهف صاغت حسها هذا ببيت أو بيتين أو ثلاثة، ثم توقفت عند هذا الحد الذي لا تتجاوزه أبداً"[1].

وفي موضع آخر نرى الدكتور جواد علي يرد بعنف على هذا الادعاء مؤيداً رأيه بدلائل تاريخية: "أما إذا كان قصدهم أن نظم القصيد كان قد بدأ في هذا الوقت ومن مدة قرن ونصف قرن.. وأن الشعر بالمعنى الاصطلاحي المفهوم منه لم يظهر عند العرب إلا قبل قرن أو قرنين عن الإسلام فذلك خطأ في الرأي وفساد في الحكم، فالشعر أقدم من هذا العهد بكثير، وقد أشار المؤرخ "موزيموس" إلى وجود الشعر عند العرب، وهو من رجال القرن الخامس للميلاد، وفي سيرة القديس "فيلوس" المتوفى حوالي سنة 430م أن أعراب طور سيناء كانوا يغنون أغاني وهم يستقون من البئر"[2].

ومشكلة هذا النص أن الدكتور جواد علي لم يأتِ في استدلالاته التاريخية بجديد، فالفترة التاريخية التي روى أن العرب قالوا فيها شعراً كما أشار المؤرخ "موزيموس" والقديس "فيلوس"

(1) المصدر السابق، جـ9، ص 422.
(2) علي، د. جواد، المفصل، مصدر سابق، جـ9، ص 410.

تقع كلها في القرن الخامس، والقرن الخامس يقع في نطاق القرن أو القرن والنصف قبل الهجرة بالتحديد الذي رواه علماء المسلمين أو هو أبعد منه بقليل جداً.

أما احتجاجه بأن الأحاسيس والشعور المرهف لا تقيد ببيت أو بيتين؛ وتساؤله عن الكابح الذي يمنعه من الانطلاق؟. فهناك رأي آخر وهو أن الشعر فن ذو تقاليد متوارثة لابد لها كي تفرض وجودها أن يكون طرحها تدريجياً، وبصورة مقبولة، وبعد ذلك تنطلق بالتطويل بحسب ذوق المستمعين والجمهور. فالقصائد التي كانت طويلة على عهد شعراء المعلقات، وعلى عهد من تلاهم من المخضرمين والإسلاميين والأمويين، لم تعد كذلك في عهد العباسيين ولم يستجد الناس في هذا العصر "عصر السرعة" تطويل القصائد فلم يعد الزمن يسمح بذلك.

وقد يكون البيت والبيتان هما العرف السائد، والثقافة المسيطرة كما أسلفنا، ويكون التطويل ممجوجاً غير مرغوب، أو هو غير معروف أصلاً، ثم بعد ذلك تطور الأمر إلى التطويل.

وفي الأجناس الأدبية الأخرى يلاحظ أن التطور من القصير إلى الطويل شيءٌ مرصود تاريخياً ومعترفٌ به، فالحكاية تطورت إلى الأقصوصة، والأقصوصة إلى القصة القصيرة، والأخيرة إلى الرواية.

ويبقى بعد ذلك أن التمثل بالبيت والبيتين عند الحاجة - قد يكون في البداية المبكرة التي لابد أنها بعيدة، ثم إن تقييد النص بالغرض وهو الحاجة يزيل شيئاً من اللبس، فصاحب الحاجة إلى الآن يكتفي بأبيات قليلة بين يدي حاجته، إذ قد يكون المقام لا يمسح بأكثر من ذلك.

## ارتباط الشعر بالغناء:

جارى بعض المحدثين ما ذهب إليه بعض الأوائل ولم يكن لهم سبيل إلا إتباعهم وذلك في الربط بين الشعر والغناء [1].

وآخرون آثروا أن ينظروا إلى ما وراء الموجودات، ويحللوا ما وراء الروايات، فرأوا أن

(1) انظر: وريث، محمد، تلازم الشعر والغناء، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، د.ت.

الشعر لا يمكن إلا أن يكون تطوراً عن بدايات متعثرة أو بسيطة اقترنت بالرجز أو الموسيقا. وهو ما لاحظه أيضاً القدماء "فقد زعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولد من السجع مرتبطاً بالحداء، ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء، ومنه تولدت الأوزان الأخرى.. غير أن هذا مجرد فرض، ولكن شيوعه لا يعني قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى، إنما يعني أنه كان وزناً شعبياً لا أكثر"[1].

ومع أن الدكتور شوقي ضيف في رصده لمقولات البداية، قد رفض التسليم بأولية الرجز، إلا أنه لم يقدم دفعاً مبرراً لارتباط الشعر بالسجع أو الحداء أو وقع أخفاف الإبل..

بل إننا نراه في أكثر من موضع يرسخ هذا المعنى فهو يقول ".. إن الشعر في الجاهلية يصحب بالغناء والموسيقا، فهو شعر غنائي تام.."[2].

ويقدم من التبريرات لذلك أننا لو أردنا أن نرجع إلى هذا الشعر وجدنا فيه بقايا الغناء والموسيقا ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف. ولتبق بعد ذلك أمامنا الصورة النهائية الحالية للشعر العربي بعد انفكاكها من الموسيقا والغناء، فالشعر أخذ في نهاية هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقا، فكان بعض الشعراء لا يغنيه وإنما ينشده إنشاداً، و "الإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة "[3].

وإذا بحثنا عن كيفية اهتداء الشعراء القدامى إلى الموسيقا الشعرية فإننا نجد ابن رشيق يحدثنا بأنهم "توهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أي فطنوا" [4].

وهذا القول يدل على أن العرب تعمدوا الوصول إلى هذه الأوزان والذي يتعمد لا يتعمد أوزاناً بعينها ويترك أخرى..!

(1) ضيف، د. شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص 188، النهضة المصرية، القاهرة، 1976.
(2) المرجع السابق، ص 193.
(3) المرجع السابق، ص 194.
(4) ابن رشيق، أبو علي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، جـ 1، ص 4، دار الجبل، بيروت، ط5، 1981.

"وإنما الشعر في واقع أمره وحقيقته إلهام، والعرب قد ألهموا هذه الأوزان ليس دفعة واحدة، وإنما بالتدرج من البسيط إلى المركب"[1].

وفي هذا النص الذي نقلناه عن الدكتور محمد عثمان علي كثير من التشابك والتداخل، فهو حينما أخذ على ابن رشيق قوله إن العرب توهموا أعاريض وسموا توهمهم هذا شعراً لأنهم شعروا به أي فطنوا..

أخذ عليه قولاً وافقه عليه هو أخيراً أو نسب إليه أشياء لم يقلها..

فالتوهم لا يعني أبداً التعمد.. التوهم يعني شيئاً من الخيال أو شيئاً غير محسوس ومما يدعم هذا أنه: "فلما تم لهم وزنه سموه شعراً" لأنهم شعروا به..

فالمسألة فيها جانب غيبي لا إرادي ولكن هذا الغيب اللاإرادي لم يكن بغائب كلياً عن إدراك الإنسان، وإنما هو وهم، وخيال، واعتمال فكر، وتفكر مع وجدان، ومشاعر، اكتملت صورة كل ذلك بالشعر.

فلما خرج مكتملاً لفظاً ومعنى وأدركوه "شعروا به" سموه شعراً، هذه الحال هي المرحلة الأولى من التأسيس الشعري.. وكل هذه المرحلة مستقاة من قول ابن رشيق: "توهموا"، أما قوله "أعاريض جعلوها موازين الكلام" فالظاهر أنه لم يقصد العروض بمعناه الخليلي..، وإنما المفهوم من ذلك أنهم لما تمت لهم بعض الأوزان بشجاها الغنائي الموسيقي جعلوا الوزن. وهذا الوزن شعوري بالطبع وليس صناعياً.. وقد استمر شعورياً فطرياً، فيما نعلم إلى زمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. ولا أحد ينكر أن العرب كانوا يحسون إحساساً جلياً بالوزن بدليل أن الشعراء القدامى كانوا يقولون القصيدة على وزن واحد، وندر أن يخالفوا هذا الوزن في أثنائها. فإن شعورهم بالأوزان وتعمدهم فيما بعد السير على منوال الأوزان السابقة لا يقتضي بالضرورة أن يحيطوا علماً بكل الأوزان مرة واحدة.

ولهذا نأخذ عليهم أنهم إن تعمدوا، فَلِمَ عرفوا بعضاً وتركوا بعضاً آخر، بينما الواقع أنهم لم يعرفوا أي بعض بمفهومنا المعرفي الخليلي للوزن..

(1) علي، د. محمد عثمان، أدب ما قبل الإسلام، مرجع سابق، ص 104.

وإنما معرفتهم كانت بالحدس والحس، وهذا ليس محل جدال كبير بين النقاد، وإن كان هناك من زعم أن العرب قد عرفوا العروض وأوزانها قبل الخليل ولكن لم يستطع أن يقدم الدليل القاطع على ذلك.

وحتى لو سلمنا جدلاً بالمعرفة فإن نشوء علم أو فن لا يكون بالضرورة نشوءاً واحداً مكتملاً من أول بدئه. فالتدرج فيه من البسيط إلى المركب ومن البداية المتعثرة حتى تكتمل الصورة هو الأكثر استساغة بين الفروض جميعها.

وعلى أي حال، فإن الشعر العربي في بدئه ارتبط بالتأكيد بمؤثرات ثقافية:

منها: تطور نظرة العربي إلى الحياة وشؤونها وشجونها، واستقراره على فهم معين لها.

ومنها: نضجه الفكري وثباته المعرفي في تصوره للأشياء وإدراكه لها.

ومنها: القوة النفسية العظيمة والعاطفة الفياضة التي وفقت ما بين المشاعر الفياضة والفن القولي.

ومنها: أيضاً معرفته بعلوم عدة منها الموسيقا.. ومعارف أخرى أسهمت في تعرفه إلى الأوزان والألحان، فاستطاع العربي أن يؤلف معارفه وثقافته ليخرج لنا هذا الفن الشعري الذي استمر خالداً مئات السنين.